الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

ISBN 978 - 9948 - 499 - 89 - 3

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+
الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي
mail@iacad.gov.ae www.iacad.gov.ae

ذهبَ المال، وبقيت الأعمال شواهدَ خالدة على أناسٍ أنعم الله عليهم بالتوفيق، فاستعملهم في طاعته، واختارهم أمناء على وحيه، وجعلهم مِن أسباب حفظه.

نَعَم إنّهم أناس أثبتوا أنهم أهلُ الله إذ كانوا أهلاً للقرآن

ألم يَبذلوا له أموالَهم والمالُ شقيقُ الروح؟

ألم يَعملوا على حفظ مبانيه ونشر معانيه بكل ما أُوتوا مِن قوة مادية ومعنوية؟ بلى

وتعالوا نطل إطلالةً عاجلةً مِن إحدى نوافذ الوقف على تاريخ مشرق، وصفحات تتلألأ، وساعاتٍ سما فيها الإنسانُ على كل ما في الدنيا فخرج عن ماله لله، فدانتْ لذكره الدنيا ما بقيت.

لقد أيقنتْ الأمة أنَّ مجد الدنيا وعز الآخرة في القرآن وعملتْ بهذا اليقين.

وعلمتْ أن سعادة الدنيا ونجاة الآخرة في هذا القرآن وعملتْ بهذا العلم.

وتحت هذين الشعارين: « حفظ المباني ونشر المعاني » بُذلت أموال، ونَهضت أعمالٌ تستعصي على الإحصاء.

وهذه المساجد الكبرى فاسألوها.

وهذه دُور القرآن الخاصة فاستنطقوها.

وهذه المدارس العلمية العامة التي كان فيها قاعات للقرآن فاستشهدوها.

وهذه تُرَبُ الراحلين الكبار فاستفهموها.

ولأبدأ من (حلب الشهباء) فهذا مسجدها الأموي كان يُقرَّر من وقفه أرزاق لإقراء القرآن من علمائها، أو من الوافدين، والأسماءُ كثيرة كثيرة، ويكفي أنْ نتخيل عالماً من إشبيلية يعلِّم القرآن في حلب، ويتقاضى راتباً من وقف جامعها.

وهذه دار القرآن الرشائية - وهي أقدمُ دار للقرآن في دمشق- أنشأها الإمامُ الذي انتهت إليه الرئاسة في قراءة عبد الله بن عامر: أبو الحسن رشأ بن نظيف في حدود الأربع مئة. وهي

واحدة من مئات الدور التي تفتَّحت زهوراً تجلو الحزن في حدائق عالم الإسلام.

وقد أصبح هذا لدى الأمة شغلاً شاغلاً، فهذا ابنُ الجزري يُنشئ داراً للقرآن في دمشق، ثم يَكتب اللّٰهُ أنْ يعيش في شيراز فينشئ داراً للقرآن هناك، ثم يُدفن فيها، فسلام اللّٰه على ذلك الدمشقي الشيرازي!

أمّا المدارسُ العامة فحسبنا أن نتوقف عند المدارس الثماني التي أنشأها الوزيرُ الكبيرُ العالمُ العادلُ نظامُ الملك وعُرفت بالنظاميات في عددٍ من البلاد، منها المدرسة النظامية في (بغداد)، وهي وقفٌ على الشافعية أصلاً وفرعاً، وشرَط كذلك أن يكون فيها مقرئٌ يقرئ القرآن.

ومن أجمل مدارس الدنيا المستنصرية على ضفاف دجلة التي كان فيها دارٌ للقرآن تعلِّم ثلاثين يتيماً كتابَ ربهم.

ثم نعرِّج على المدرسة الفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل في (القاهرة) ووقفها على الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة لإقراء القرآن، أقرأ فيها الإمامُ الأجلُّ الشاطبي.

وللتُـرب بوابةِ العالم الآخر حديثٌ طويل، فقد شهدتْ تلك التربُ أصواتَ القراء معلِّمين ومتعلّمين قروناً طويلاً، وكأنَّ المسلمَ يريد ألا ينفك عن كتاب الله في دنياه وأخراه، بعد أنْ آمن أنه النور والهداية والعروة الوثقى.

وربمـا أتاكم حديـثُ الوزير أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي المصري المعروف بالصاحب تاج الدين ابن حَنا، فقد كان في تربته التي دُفن فيها مكتب للأيتام يتعلمون فيه القرآن.

قال الصفدي: « ومن أحسن حركةٍ اعتمدها ما حكاه لي القاضي شهـابُ الدين ابن فضـل الله قال: اجتزتُ بتربتـه فرأيتُ في داخلها مكتبـاً للأيتـام وهم يكتبون القـرآن في ألواحهم، فـإذا أرادوا مسحها غسلوا الألواح وسكبوا ذلك على قبره.

فسألـتُ عـن ذلـك فقيل لي: هكـذا شَرَط في هـذا الوقف. وهذا قصدٌ حسن وعقيدة صحيحة »[1].

وما أندى أَنْ يبلَّ الماءُ المعطَّرُ بورد القرآن ثرى الإنسان !

---

(١) وهو تصرف شخصي لا يقصد منه شيء آخر.

وإذا جئنا إلى الوقف على نشر معاني القرآن رأينا له صوراً رائعة، ومشاهد معجبة، تحملنا على أنْ نعتزَّ بها، وتحفزنا على الاقتداء بأصحابها.

يقفُ الواقفون اليوم على ما يُسمَّى كراسي علمية في الجامعات، والواقع أنَّ هذه فكرةٌ إسلاميةٌ قديمةٌ، فهذا السلطان المنصور قلاوون الصالحي يُنشئ درساً للتفسير في قبته، وكان من ثمار هذا الوقف ظهورُ تفسيرٍ كبيرٍ أصبح من المراجع المهمة، ذلك هو (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي، وقد تحدَّث أبو حيان عن هذا في صدر تفسيره المذكور فقال:

« مازال يختلجُ في ذكري، ويعتلجُ في فكري، أني إذا بلغتُ الأمدَ الذي يتغضَّنُ فيه الأديم، ويتنغصُ برؤيتي النديم، وهو العقد الذي يحلُّ عرى الشباب، المقولُ فيه: إذا بَلَغَ الرجلُ الستينَ فإياه وإيا الشواب، ألوذُ بجناب الرحمن، وأقتصرُ على النظر في تفسير القرآن، فأتاح اللهُ لي ذلك قبل بلوغ ذلك العَقْد، وبلّغني ما كنتُ أروم من ذلك القصد، وذلك بانتصابي مدرِّساً في علم التفسير في قبة السلطان

المنصور قدَّس الله مرقده، وبلَّ بمزن الرحمة معهده، وذلك في دولة ولده السلطان القاهر، الملك الناصر، وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبع مئة، وهي أوائل سنة سبع وخمسين من عمري، فعكفتُ على تصنيف هذا الكتاب، وانتخاب الصفو واللباب، أُجيل الفكرَ فيما وَضَعَ الناسُ في تصانيفهم، وأُنعمُ النظر فيما اقترحوه من تآليفهم، فألخصُ مطولها، وأحلُّ مشكلَها، وأقيِّد مطلَقها، وأفتحُ مغلَقها، وأجمع مبدَّدَها، وأخلِّص مُنْقَدَها...».

وممن وَلِي كرسيَ التفسير في هذه القبة الإمام عبد الكريم بن علي الأنصاري العراقي، والحافظُ ابنُ حجر العسقلاني.

وقبل مدةٍ نزلتُ القاهرة ودخلتُ هذه القبة التي ما تزال شاخصة تشمخ بالأبهة والجلال والعظمة والسمو، ووقفتُ خاشعاً أحاول أنْ أسمع صوت أبي حيان وابن حجر وغيرهما من العلماء وهم يمتعون آذان الدنيا بصوت الحق والهدى والجمال.

وفي عاصمةٍ أخرى من عالم الإسلام كان ابنُ كثير يُلقي من على كرسي التفسير في الجامع الأموي بدمشق تفسيرَه الخالد.

ومن يزر (اسطنبول) فلا ينس أن يزور أيا صوفيه ويستذكر المجلسَ الحافلَ الذي ختم فيه العلامة النكساري تفسيرَ القرآن وقال: أيها الناس إني سألتُ الله تعالى أنْ يمهلني إلى ختم تفسير القرآن العظيم، ولعل الله تعالى يختمني عقيب ذلك. فدعا الله سبحانه وتعالى بالختم على الخير والإيمان فأمّن الناسُ لدعائه، ثم أتى بيته ومرض وتوفي.

وكان ممن حضر درسه في أيا صوفيه: السلطان بايزيد خان، حضر لاستماع تفسيره.

ومِنْ نشر معاني القرآن وقفُ تفاسيره، وهذا بابٌ واسع نرى من خلاله جهوداً جبارة في تداول الكتب، والحرص عليها، وتعميم الانتفاع بها، وسرعة سفرها من المشرق إلى المغرب، والمغرب إلى المشرق.

ولا يفوتني أخيراً أنْ أُشير إلى وقف المصحف ذاتِه، وهذا كثيرٌ لا يأتي على جمعه الجامعون، ولكن مِن صوره العظيمة أنْ يقومَ سلطانٌ بكتابة المصحف بخطه، ويقفه على المساجد

الكبرى، كما فعل السلطان علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني ملك المغرب إذ كتب مصحفاً في ثلاثين جزءاً ووقفه على المسجد الأقصى.

وكما فعل أورنك زيب عالم كير ملك الهند إذ كتب مصحفاً ووقفه على المسجد النبوي.

تصعبُ الإفاضة في رصد المشروعات التي تمَّت في الوقف على القرآن وهي مشروعات كبرى، ينافس فيها اللاحقُ السابقَ، بحيث اشتعلتْ بلاد الإسلام بالعلم والتعليم، وكان كلما وُقِفَ درهمٌ ارتفعتْ راية، وبُلِّغتْ آية، وكُتبتْ صفحة جديدة في كتاب الحضارة.

أوصي بتعميم الوقف على الكراسي القرآنية في الجوامع، كما في الجامعات[1].

❁ ❁ ❁

(١) ألقيت هذه الكلمة في مؤتمر «أثر الوقف الإسلامي في النهضة العلمية» في جامعة الشارقة (٩-١٠/ ٥/ ٢٠١١م).

ملحق عن مشاركة الكاتب في حوار عن (تجديد الخطاب الديني)

خصَّتْ مجلةُ (المنبر الثقافي) التي تصدرُ عن الملحقية الثقافية السعودية بدولة الإمارات العربية المتحدة في عددها الثالث عشر (محرم ١٤٢٩هـ/ يناير ٢٠٠٨م)، خصَّتْ موضوعَ (تجديد الخطاب الديني) بملفٍ كاملٍ، وقد حاورتْ عدداً من المختصين في هذا الموضوع، ومنهم الدكتور عبد الحكيم الأنيس كبير باحثين أول في دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي، – وقد نُشِرَ جزءٌ مِنْ جوابه –، وهذا هو السؤال والجواب كاملاً:

س: وماذا عن التجديد في الإسلام؟

ج: لابُد مِنَ التجديد في كل مناحي الحياة، فالإنسانُ يَسأمُ التكرار حتى قال الشاعرُ القديم:

ما أرانا نقولُ إلا مُعاراً أو مُعاداً مِنْ قولنا مكرورا

وهنا قد يعرضُ **سؤال**: كيف التجديدُ وفي أي شيءٍ والشريعةُ قد ختمت الشرائعَ واللّٰهُ قد أكمل الإسلام؟

والجواب: أنَّ التجديدَ مصطلحٌ نبويٌ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: « إنَّ اللّهَ يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مئة سنةٍ مَنْ يجدِّدُ لها دينَها » رواه أبو داود.

فلا غضاضة إذن مِنْ طرح هذا المصطلح، والكلامِ فيه، والسعيِ إليه، ولكن لابُدَّ من فهمهِ حقَّ الفهم، فالتجديدُ هو في إظهار أمر الدين الحقِّ، ونفيِ ما يكونُ قد أُلصِقَ به وهو ليس منه، والتجديدُ في إظهار حقائقِ الكتاب والسُّنة، وملاحظةِ العناصر الثلاثة: الزمان والمكان والإنسان.

والداعيةُ الواعي الواسع الأفق هو مَنْ يكونُ على دراية كاملة بالأسلوب الذي يُناسِبُ زمانَه، ويَنفعُ مكانَه، ويُقنِعُ إنسانَه.

ومِن ذلك مثلاً الإفادةُ مما يُسمّى الإعجاز العلمي في القرآن والسنة – وأنا أفضِّلُ أن نسمي هذا: التفسير العلمي للقرآن والسنة– فمخاطبة العالَم عبرَ هذا المنهج يُساعِدُ كثيراً على لفتِ الأنظار إلى هذا الدين، وحقائقه، وآفاقه، شريطةَ الالتزام الجادِّ بضوابط هذا التفسير وعدم الشطط فيه.

وفي العالَم اليومَ حاجةٌ إلى القناعة العقلية، والإشباع الروحي، والاستقرار النفسي، ومن المهمِّ أنْ نُحسنَ تلبية هذه النداءات، ونشبع هذه الرغبات، بأسلوبٍ مناسب، وخطابٍ جاذب.

وكلُّنا يَعلم التوجيهَ الرائعَ في مضمون: حدِّثوا الناس بما يعقلون أتحبون أنْ يكذّب الله ورسوله.

فإذا أساء المخاطِبُ خطابَ الآخر أدَّى هذا إلى الضرر البالغ بالمدعوِّ والدعوة.

ومِن تجديد الخطاب الديني تقديمُ العملِ على القول، أي التركيز على صنع القدوة الحسنة، وتقديم الإسلام إلى الناس عبر السلوك الراقي الحسن الجميل، والأنموذج الذي يُحبِّبُ الدين، وعقيدته، وحقائقه إلى الناس.

وقد اشتكى أحدُ العلماء الدُّعاة من الكلام الخاوي الخالي من التأثير فقال:

عصرُ الكلامِ تصرَّمتْ أوتارُه ... ومضى يجرُّ وراءَهُ الأنغاما

لو كان يَنفعنا الكلامُ مجرَّداً ... لملأتُ آذانَ الزمانِ كلاما

ومما يدلُّنا على ضرورة تجديد الخطاب ما رأيناه مِنْ صنيعِ علماء الأمـة، فهُمْ في كل عصرٍ، وفـي كل قطرٍ يضعون من المؤلفات العلمية والفكرية والدعوية ما يُناسِبُ عصرَهم وأهلَ عصرِهم.

ومـن ذلـك تفسيـرُ القـرآن الـذي لا تنقضـي عجائبـه ولا تنتهي غرائبه.

والسُّنة بحاجةٍ اليومَ كذلك إلى مَنْ يجلِّيها ويُظهِرُ ما فيها مِنْ منهجٍ عظيمٍ يصنع الإنسانَ الصالح.

❁ ❁ ❁

إشاعة الثقافة القرآنية

يجبُ بحثُ الوسائل التي تمكِّنُ من إشاعة الثقافة القرآنية، وتقريبِ الناس إلى القرآن، وتقريبِ القرآن إليهم، إنَّ كثيراً من الموسوعات التفسيرية جعلت القرآنَ خلفَ الأسوار، والغالبيةُ العظمى من المسلمين يجهلون معاني القرآن، وأهدافه، وأحكامه، ومواعظه، ولا يدنون منه إلا لماماً، ومَنْ دنا تلاه متبركاً طالباً للثواب فحسبُ، وهذا تعطيلٌ له.

وإنَّ مهمة الدعاة الأولى أنْ يفكِّروا في إيجاد طريقة لجعل كلِّ مسلم على وجه الأرض يفقهُ مقاصدَ القرآن ومعانيه فقهاً يؤهِّله -إذا امتُحن- للنجاح بتفوق.

إنَّ المختصين لا يملكون من الصبر والوقت ما يجعلهم يعكفون على قراءة تفسير الرازي ودراسته مثلاً فكيف بالآخرين؟ وينسحبُ هذا على تفسير الطبري، والقرطبي، والآلوسي، وغير ذلك من التفاسير، ولنفرض أنَّ أحداً عَقَدَ العزم على خوض لجة هذا

المحيط، فكيف يكون الحالُ إذا اصطدم بأمواج الخلافات والأقوال المتغايرة، والنقول المتنافرة، والأحاديث الضعيفة والموضوعة، وروايـة الإسرائيليات المقيتـة، والخروج عن دائـرة النص القرآني إلى مالا يَقتضيه النص؟

هـذا شـيءٌ، و الشـيءُ الآخر هـو أنني ألمسُ رغبة مـن الناس في فهـم كتابهم، ولكنهم لا يعرفون الطريقَ إلـى ذلك، فينبغي أنْ يجتمعَ الدعـاةُ ويضعـوا الخطـوط العريضـة للدخـول إلـى عالـم القـرآن، ويعملوا على إشاعة هذه الخطوط في المنابر والمحافل.

هـذا ما عنَّ لـي الآن، وفي الموضوع حاجةٌ إلـى التدارك السريع، والله المستعان[1].

❁ ❁ ❁

(١) كتبت هذه الكلمة في (١٦/ ١٢/ ١٩٩٢م).